استحالة الإمساك بالهواء

احتفظ الشيخ فريد هنيدى لنفسه بملاحظات عميقة حول العهد الجديد الذى أسماه الجمهورية المصرية الثالثة.. ثم يشرع أحيانًا فيختصر هذا الاسم إلى: جمهورية حسنى مبارك.

ولم يمض كثير من الوقت على هذا المولود الجديد حتى بدت قسماته تتضح للشيخ فريد، فقال لنفسه: ما دام كل شىء مازال على ما هو عليه: مؤسسات وشخوص وقوانين وتوجهات، فهذا معناه أن لصوص هذا الشعب ما زالوا يحتلون مواقعهم ولكن خلف ساتر، وأنه إذا كان لا يظهر منهم الآن سوى مبايعات حثيثة مدفوعة الثمن على صفحات الصحف القومية فهذا معناه ـ أيضًا ـ أنهم يستعدون لنشب مخالبهم فى هذا اللحم الجديد الطازج عندما تلوح لهم الفرصة المواتية.

ولأن الرئيس الجديد لم يرفض هذا النفاق المبكر من أكلة الأكتاف، فقد عزا الشيخ فريد ذلك إلى أن هذا الرجل الذى اعتلى الحكم فجأة وعلى غير انتظار كان بحاجة إلى من يعززه فى هذا الجو المشحون بالغضب والتوتر، ومع هذا فقد ظهر للناس ـ بل وللرئيس نفسه ـ أن من يتولون تعزيز العهد الجديد هم أنفسهم الذين تسببوا فى تشويه العهد القديم.

ولم يتعجب الشيخ فريد لهذا السيل من المبايعات الذى يطل برأسه على غير استحياء فى الصحف القومية باسم البرلمانى الشهير السيد النحال تارة وباسم شقيقه أمير تارة أخرى.. ثم لم يتعجب الإمام الغاضب أن رأى فتيان يقلد أبناء النحال باستماته وغباء شديدين.

وبدا أن الأمر عند النظام الجديد كان بحاجة إلى فعل ما يؤكد به للناس أنه ضد الفساد، والدليل أنه سوف يطارده ويطرد المفسدين، وتحت هذا العنوان البراق وصلت إلى القضاء قضية من كل تلال القضايا المتراكمة دون أن تجد طريقها المفترض إلى المحاكم.

وهى قضية اختيرت بعناية من كل قضايا صاحبها حشمت بركات، وبدا أن المطلوب

هو أن يحاسب على بعض ما فعله؛ إذ من الصعب محاسبته على كل ما فعله.

وكانت المفاجأة أن كثرت سكاكين هذا الثور المطروح أرضًا، حتى صارت جرائمه الفعلية لا ترقى إلى نصف ما اتهمه به المغرضون الناقمون الذين تطوعوا بتقديم اتهامات جديدة لهذا الفاسد الكبير الذى سرق أموال الشعب، وظهر أن مغازلة العهد الجديد هو الهدف من أناس يعملون بالقطعة فى توصيل خدماتهم حتى باب الرئاسة.

وكان للسيد النحال مشاركته الفعالة فى ذبح صديقه القديم، ولكن بإخراج مختلف وسيناريو لا يأتى بمثله سوى محترف.

فقد أمسك بإحدى الصحف وهو يشير إلى صورة حشمت بركات داخل قفصه مجيبًا على سؤال حول طبيعة العلاقة التى كانت تربطه بالمتهم، فقال:

ـ «هذا الرجل ظلم النظام قبل أن يظلم نفسه، فهو رجل خُدع أمام إغراءات وانحناءات المنافقين حتى تضخمت ذاته، وإذا اعترفنا بالضعف الإنسانى الذى لا يسلم أحد من سطوته فلابد أن نلتمس له العذر فى قبول الهدايا والصفقات من أصحاب المآرب الذين أحاطوا به. فلا تبحثوا عن مفاسد الحكام وأقاربهم، ولكن ابحثوا عن أصحاب المآرب الذين مهدوا لهم الطريق»

وضرب السيد النحال مثلًا، فذكر واقعة حول منافقة الحكام لم يكن يعرفها إلا قليل من الناس، وكانت عن الأستاذ الجامعى الشريف الذى أطيح به لأنه لم يقبل تغشيش الطالب جمال أنور السادات فى امتحان مادته. ولأنه قام بطرد شلة الأساتذة المنافقين الذين أحاطوا بالطالب فى لجنة الامتحان تطوعًا منهم لمساعدته، ولأنه ما قام به لم يرق للسيد رئيس الجامعة، فقد بادر الأخير بفصل هذا الأستاذ..

وكالكطائر الرشيق انتقل السيد النحال من هذا الغصن إلى غصن مجاور قائلًا:

ـ «لو تعلمون ما قاله هذا الأستاذ المفصول لتعجبتم، فقد أكد أن جمال أنور السادات لم يكن بحاجة إلى هذه المساعدة؛ لأنه استوعب مادته دون الحاجة إلى هؤلاء المنافقين.. ولكن ماذا تفعلون أمام هؤلاء المفسدين الذين يبيعون ضمائرهم لخدمة الحكام ومن يلوذ بطرفهم من أبناء وأقارب»

ثم عاد السيد النحال إلى سؤال مهم قائلًا:

ـ «فماذا لو حدث مثل ذلك النفاق مع الطالب جمال حسنى مبارك الذى يدرس فى الجامعة

الأمريكية؟.. ووجد هذا الطالب نفسه يتمتع بدرجات عالية لا يستحقها.. أليس مثل هذا الكرم المجانى سيكون له فعله السيئ على المدى القريب والبعيد فى نفس جمال مبارك..؟ للأسف فإن هذا ما سوف يحدث.. أولًا.. سوف يتمتع بحقد وكراهية زملاء دراسته دون ذنب منه فى ذلك.. ثانيًا.. سوف يتعلم الفتى منذ البداية فكرة الاستسهال والتواكل وركوب ظهر المنافقين للوصول إلى غايات بعيدة لم يكن فى ظنه وفى خطته الوصول إليها..»

وأنهى السيد النحال فقرته الاستعراضية مطلقًا حكمة أثيرة:

ـ «نعيب زماننا والعيب فينا، آسف نعيب نظامنا والعيب فينا!»

ولأنه ابتعد بالصحفى عن مجرى الحوار، فقد عاد به محاوره إلى متن الحديث فراح يذكره بحشمت بركات وما يعرفه الناس عن رباط الشراكة الذى ارتبطا به طوال سنوات العهد الماضى، ولم يعلم الصحفى الحويط أن السيد النحال الأكثر تحوطًا منه سوف يهديه سرًّا يتلهى به عن محاصرته، فقال له:

ـ «يبدو أنك لم تلتفت إلى مغزى قولى إن حشمت بركات ظلم النظام قبل أن يظلم نفسه، فهل تعلم أن السيدة جيهان السادات قد مسها الظلم وهى زوجة لنائب رئيس الجمهورية وقبل أن تتمع بلقب السيدة الأولى؟..»

ولما سال لعاب الصحفى وسأله بلهفة:

ـ «كيف؟» راح السيد النحال يشرح له بعض ما يحدث فى العلاقات الخاصة يبن سيدات الطبقات الراقية وكيف أنهن يتبادلن استعارة المجوهرات الثمينة للظهور بها فى الحفلات الكبرى.

وهذا ما كانت السيدة جيهان تضطر إلى القيام به فتلجأ إلى بعض صديقاتها الأميرات خاصة الكويتيات اللاتى يقمن بالقاهرة فتحصل على بعض مجوهراتهن لأيام ثم تعيدها إليهن.. وفيما بعد ظهر لصاحبات المصاغ أن ممتلكاتهن الثمينة العائدة لم تكن إلا قطعًا مماثلة شكلًا ولكنها زائفة موضوعًا.. ودار الهمس فى الخفاء بسوء ما تفعله زوجة النائب المظلومة ، ولعلها لا تعلم حتى الآن ما قيل عنها وقتها، ثم ما قيل عنها بعدما صارت زوجة الرئيس.. كل هذا والفاعل يتمتع بحريته فى تصريف المجوهرات الأصلية.

وهب الصحفى من مقعده سائلًا بلهفة:

ـ «هل تقصد أن السيد حشمت بركات كان هو الفاعل؟»

وبهدوء شديد أجابه السيد مراوغًا:

ـ «لك أن تسأل من الذى أوحى له بهذه الفكرة العجيبة.. فالرجل حسب نشأته لا علاقة له بالمجوهرات وعالمها الخاص.. إلا أنهم أصحاب السوء الذين كانوا يحيطونه ويسرون له سبل الكسب الحرام..»

وعاد الصحفى إلى الحاحه:

ـ «وهل تعرف من هم هؤلاء»

وفر السيد النحال إلى غاباته المظلمة:

ـ «اسمح لى أن أحتفظ بالتفاصيل حتى لا تجدد أحزانى على زوجتى التى كانت ضحية هذه المغامرات بحكم عملها بالقرب من حشمت بركات»

وهاج حشمت بركات فى قفصه، فأرسل لعناته إلى السيد النحال مصحوبة باتهامات مثبتة لهذا النائب البرلمانى الكاذب تؤكد ضلوعه فى التزوير منذ نعومة أظفاره، فهو يجيد هذا الفعل فيما بين تقليد المجوهرات وتقليد شهادة أدائه الخدمة العسكرية، حتى إنه شكك فى صحة دبلوم الصنايع الذى يحمله، ثم عاد فأكد لجمهور المتابعين أن زوجة النحال التى كانت تعمل وصيفة لزوجة النائب هى التى تولت معه موضوع تزييف المجوهرات .

وابتسم النحال فى ثقة وهو يرى غريمه الهائج يدخل إلى النفق المظلم الذى أعده له، فرتب لقاء تليفزيونيًّا للرد على الاتهامات الموجهه له.. فقال دفاعًا عن شهادته المتواضعة إنه يفخر بها؛ لأن حصوله عليها كلفه سنوات تكفى لنيل الدكتوراة، أما عن شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية فهو لم يكن بحاجة لتزويرها، ولما سأله المذيع:

ـ «لماذا؟» لم يسرع بالإجابة وإنما أسرع بخلع حذائه ثم جوربه وقدم للكاميرا قدمه اليمنى بإمعان ليرى المشاهدون إصبعيه المبتورين.. ثم يستمعون إلى صوت ملىء بالشجن تعمد صاحبه وهو يشرح قصة هذين الإصبعين المبتورين أن يواكب صوته لمعة من الدموع فى مآقيه الحزينة:

ـ «لم يحزننى أن فقدت إصبعىّ هذين وأنا أعمل حدادًا مسلحًا باليومية وأنا شاب فقير قدر ما أحزننى أنهما حرمانى من دخول الجيش الذى يعفى مثل هذه الحالة.. ومن هنا، فأنا

أقول لصديقى الظالم حشمت بركات كيف يتهمنى بتزوير شهادة إعفاء من الخدمة العسكرية، وهذه الشهادة مرسومة على جسدى، وطالما كان ظالمًا فى هذا الاتهام، فهل تراه سيكون بريئًا فى اتهامه لى فى موضوع المجوهرات الذى ماتت زوجتى بسببه...»

وتورط حشمت بركات للمرة الثانية فى الإتيان برد هو نفسه ما كان يريده السيد النحال، فقد جاءه الرد من حشمت فى صيغة سؤال:

ـ «هل نسى هذا الكاذب أن زوجته قد ماتت فى عملية إجهاض؟»

وسرعان ما توارت قضية المجوهرات المزيفة وبرزت قضية أكثر إثارة هى قضية موت إمرأة حامل تنتمى لزوج عقيم، فقد كسا النحال صوته ـ فى لقاء تال ـ بمسحة حزينة وهو يقول:

ـ «لم ولن أنسى أن زوجتى فوزية ماتت فى عملية إجهاض لم أكن أعلم عنها شيئًا.. فهذا ما قاله لى صديقى حشمت بركات وأنا أرافقه فى مهمة رسمية فى اليونان.. وكان يرافقنى فى البحث عن أطباء لعلاج عقمى.. وفى طريق عودتنا أبلغنى بخبر الوفاة الذى كان على علم به قبلى..»

ثم وبنبرة أكثر حزنًا راح يسأل المحاور:

ـ «ضع نفسك مكانى.. فبيدى تقرير عدت به من اليونان يؤكد عقمى، وصديقى يبلغنى بوفاة زوجتى فى عملية إجهاض..»

وبدموع انهمرت طيعة استدر النائب الشهير إشفاق الرأى العام على شرفه الذى ديس بالأقدام لأنه اقترب لسوء حظه من بعض أقارب أحد حكام مصر الذى قال عنه:

ـ «ولم أكن أستطيع مواجهته أو محاسبته أو القصاص منه.. فقد ألقى بهذا الخبر فى وجهى ونحن فى طريق العودة من اليونان.. هو يختال بسيارة مرسيدس جديدة محشوة ببضائع أخفاها عن العيون.. ومرور بخبر سار جاءنا ونحن على ظهر الباخرة وهو موت جمال عبد الناصر.. أما أنا فقد تسربلت فى حزن ثلاثى الفجيعة، هو موت زوجتى، وموت الزعيم، وموت خصوبة الرجال والحياة فى ماء رجولتى، وباختصار كان حشمت هو الرجل الذى عثر على قوته فى لحظة هى نفسها اللحظة التى عثرت فيها على ضعفى وهوانى، فكيف لى أن أواجهه؟»

وللمرة الثالثة يخطف السيد النحال متابعيه من مقاعدهم برشاقة.. فمن المجوهرات المزيفة.. إلى الإجهاض الغامض.. إلى السيارة المرسيدس المحشوة ببضائع مخفاه..

ـ «ترى ما هذه البضائع؟..»

وكأنما سمع حشمت بركات هذا السؤال ينساب من بين ملايين الشفاه، فآثر السلامة وانكفأ على نفسه ولم يشأ أن يبرز من جديد معلقًا أو نافذًا لأقوال صديقه القديم.

وكان أن اكتفى السيد النحال بهذا النصر الحاسم وهو الذى خشى أن يتمادى حشمت بركات فى غبائه ويفجر أمام الناس قصة استيلائه على فيلا وأرض حكمت وبشاير أو يشير من قريب أو بعيد لجريمة قتلهن بالسم البطىء.

ولم يكن السيد النحال يعلم أن صديقه الحبيس اكتفى هو الآخر بهذه الهزائم وانسحب خوفًا من أن يجرفه غريمه إلى قضية دس السم لجمال عبد الناصر دون علم من مضيفه أشرف بركات.

ومع هذا، فقد تقدم إلى النائب العام رجلان هما جلال وعمر حمدان شقيقا الراحلة فوزية حمدان ببلاغ يتهمان به حشمت بركات بقتل أختهما ليس لأنها شاهدة على تزييف المجوهرات، ولكن لأنها كما أبلغتهما أجبرت على دس السم فى طعام الزعيم جمال عبد الناصر بتحريض من حشمت بركات نفسه..

وفور أن خرج السيد النحال من مكتب النائب العام الذى استدعاه فى لقاء سرى وخاص على وجه السرعة اتجه إلى عين شمس وهناك كشر لولديْ حمدان عن أنيابه:

ـ «اسحبا بلاغكما فورًا.. لن أقف معكما.. سأقف ضدكما.. أنتما تخوضان قضية خاسرة، مات فيها المجنى والمجنى عليه ولا تملكان شهودًا.. كفى ما قدمته أنا لأختكما من فضيحة.. كفاها فضائح فى حياتها وبعد موتها»

وعندما خرج حشمت بركات هو الآخر من مكتب النائب العام لم يكن يعلم أن السيد النحال سبقه فى وأد فضيحة فى مهدها.. فضيحة كان يمكنها أن تهز العالم فيما لو لم يسبقه إلى إنكارها مثلما أنكرها هو.

وفيما بعد عرف حشمت أن صديقه لم يكن مدفوعًا إلى هذا الإنكار بأى واجب من

واجبات الشهامة بعد أن تأكد أن الرذاذ المتطاير من هذه القضية سيغرق كل ملابسه التى تبدو حتى الآن ناصعة. فبنفس هذا السم، وبنفس هذه الطريقة، وبنفس يد الفتاة القاتلة تم التخلص من سيدتين للاستيلاء على أملاكهما.. إنها الأملاك التى تحولت من أرض فضاء إلى أرض عامرة بالمبانى متعددة الأغراض ، فالمسجد الكبير الذى يتصدر مقدمتها تبرز على واجهته الآية الكريمة:

«هذا من فضل ربى» والمبنى المستطيل بطوابقه الخمس تقول لافتته إنها: مدارس النحال النموذجية الخاصة.. والمبنى الفخيم ذو المدخل الجانبى الخاص يشير اسمه على أنه «المبنى الإدارى لمجموعة شركات النحال»..

* * *

الشيخ فريد هنيدى سلم ببساطة وهو يتابع حوارات النحال وبركات بأنها ثقافة الأنذال.. ونذالة اللصوص إذا اختلفوا ، وفرار القبيح على جثة الحقير إذا اشتد الحصار .. لكنه تذكر ضحيتين.. طاهر زين الدين الذى افترسه الهم والسرطان ، وفوزية حمدان التى افترسها الطموح الواهم ومال حالها منذ أن وقعت فى حبائل النحال.

أما خميسة عفيفى، فقد تابعت الحملة المدروسة التى أدارها طليقها السيد النجال بإمعان وخبث شديدين ضد ولى نعمته المهان حشمت بركات قائلة لزوجها حلمى عبد الباقى:

ـ «النحال يا حلمى هو رجل العهد القديم والعهد الجديد.. وكل العهود الآتية.. فموهبته أكبر من أن تقف عند عهد بعينه؛ لأنه الهواء الذى يدخل كل البيوت، ويلفح كل الوجوه.. ويهز كل الأشجار دون أن يراه أحد..»

ويبتسم حلمى عبد الباقى فى مرارة مؤيدًا لرأيها:

ـ «ناهيك عن أنه من المستحيل أن يمسك أحد بالهواء وهو يشلح عن الرجال جلابيبهم ويطير فساتين النساء..»

فتقول خميسة:

ـ «لك الحق.. فكم من هواء راكض تآمر على عوراتنا فجأة ونحن نلوذ بالأمان..»